

# الكوفية والعقال

الإستاذ المرحوم الأب  
انسطاس ماري الكرمالي

الكوفية والعقال ( وهما : ) الصماد والمصابة

1 - تصدير

بين الادباء المعاصرين ، والمؤرخين ، والباحثين ، مطارحات ومطالعات ، ومجادلات لا تحصى ، تتعلق بالكوفية والعقال ، ووجودهما عند العرب في سابق العهد . وقد ذهب اغلب هؤلاء الافاضل الى ان وجودهما لا يتجاوز ثلاثة قرون في ابعد تقدير ، والفي بعضهم هذه المدة طويلة ، فقدها بمائتي سنة في الاكثر . وجرى حديث طويل بيني وبين أحمد زكي باشا رحمه الله ، في حزيران (يونيو) سنة 1971 م ، فكان يؤكد ان ثلثمائة سنة هي ابعد مدة يمكن ان تقدر لوجودهما عند الاعراب .

ثم استفاض حديث آخر بيني وبين الشيخ أحمد الاسكندري رحمه الله ، وطائفة من اصفياء مجمع فؤاد الاول للغة العربية كعلي بك الجارم وأحمد بك العوامري وغيرهما -- ومحصل كلامهم لا يخرج عن هذه الفكرة . ومن العبث ذكر تفاصيل هذا الحديث الذي جرى في سنة 1937 .

وأما رأيي فقد كان دائما مخالفا لآراء هؤلاء المحققين والادباء المؤرخين ، اذ كنت أقول بان الكوفية والعقال ، هما من ملابس الرأس عند العرب ، وكانا معروفين عندهم منذ اقدم الأزمنة ، اي قبل الاسلام وبعده ، الى عهدنا هذا . وليس الاسم هو المهم في هذا الموضوع ، انما المهم الشيء نفسه ووجوده بين

جاء في معلمة الاسلام ما هذا نقله الى لفتنا في تعريف الكوفية والعقال : « الكوفية وفي لغة سورية الكفية ، على ما في معجم الأب كوش اليسوعي ص 577 - وبركهاردت في كتابه تعليقات على البدو ص 27 ، وج . فسكه في كتابه رحلة في الشرق ص 185 ) كلمة عربية ، مقتبسة من اللغات اللاتينية الحديثة (1) ( فهي في الايطالية Cuffia والاسبانية Cofia والبرتوغالية Coifa والفرنسية Coiffe او Coëffe ) شستقة من حرير يتخذها بدو صحراء الشام عمرة لهم ، اولئك البدو الممتدون الى اباطح مكة ، وتثبت حول الرأس بخيل أو برير من الوبر مصبوغ بأسود ، ويوثق من فسحة الى فسحة بضبات زاهية الالوان ويسمى هذا المحبل عقالا ( بالفتح ، وباللغة الفصحى عقالا بالكسر ) وهذه الشستقة كسفة مربعة ، صفراء اللون أو صفراؤه أو خضراؤه ، توضع على الرأس ، بحيث تقع زاوية منها الى الورا ، في حين ان الزاويتين الأخرين تقعان على مقدم الكتفين . وهذا يستلزم ان تطوى الكسفة طيتين قبل ان توضع على الرأس ، بحيث يتقوم منهما زاوية ، وهذا ما يسمى طرفا حادا في صناعة القصارين ويستطيع لبسها بعد ذلك ان يجمع الطرفين الواقعين على الكتفين على وجهه ليدفع عنه اشعة الشمس أو حر السموم أو المطر أو ليخفي ملامحه ، ان لم يجب ان يبين نفسه . وتتدلى خيوط اللمحة كل التدلي حتى تتجاوز طرف الكسفة المنسوجة ، وتفتل فتلا كالمرير فتكون له تطارييف طويلة . وكانت هذه العمرة معروفة عند السلاطيسن المماليك في مصر .

(1) كذا . وهذا وهم ظاهر ، كما ستراه في موطنه عند كلامنا على وجود الكوفية عند العرب في قديم الزمن

جمهور الناس ، اذ الاسماء تختلف باختلاف الأزمنة والأمكنة والقبائل ، كما هو الأمر في أسامي أشياء كثيرة كالاسد ، والجمل ، والناقة ، والخمر ، والسيف ، إلى ما لا يعد ولا يحد من الأعيان والجواهر . ومثل هذا الأمر يجري في جميع لغات الدنيا .

## 2 - تعريف الكوفية والمقال

### ( الكوفية قبل الإسلام )

« كان المقال معروفا في فلسطين بنحو تسمئة سنة قبل المسيح » - شهادة التوراة - لا شبهة في ان المقال كان معروفا في فلسطين قبل المسيح بنحو تسمئة سنة . والشاهد على ذلك ما ورد في سفر الملوك الثالث في الفصل 20 والآية 27 وهذا نص القصة التي تروي سبب وضع العقل على الرؤوس كما جاء في نسخة التوراة المطبوعة في بيروت بالمطبعة الكاثوليكية :

« فهرب الآراميون ، واتبعهم إسرائيل ، فافتت بنهدد ، ملك آرام ، على فرس مع الفرسان . وخرج ملك إسرائيل ، فضرب الخيل والمراكب ، وضرب آرام ضربة عظيمة . فتقدم النبي إلى ملك إسرائيل ، وقال له : امض ، وتشدد ، وتأمل ، وانظر ما تصنع ، فإنه عند مدار السنة ، يصعد عليك ملك آرام . وقال لملك آرام عبيده : ان آلهتهم ، آلهة الجبال ، ولذلك قووا علينا ، ولكن اذا حاربناهم في السهل ، فانا نقوي عليهم وانت فافعل هذا الأمر : اعزل الملوك كلا من مكانه ، واجعل في امكنتهم قوادا ، واحص لك جيشا كالجيش الذي سقط لك ، وخيلا كالخيل ، ومراكب كالمراكب ، فتقاتلهم في السهل ، وتقوى عليهم ، فسمع منهم وفعل كذلك . فلما كان مدار السنة ، احصى بنهدد الآراميين ، وصعد إلى افيق لمحاربة إسرائيل واحصى بنو إسرائيل ، وتزودوا ، وساروا للقائهم ، ونزل بنو إسرائيل مقابلهم كأنهم قطيعان صغيران من المعز ، والآراميون قد ملأوا الأرض . فتقدم رجل الله وكلم ملك إسرائيل . وقال : هكذا قال الرب الاجل ان الآراميين قالوا : ان الرب هو اله الجبال ، لا اله الاودية ، فاني دافع إلى يدك كل هذا الجمهور العظيم ، لتعلموا اني انا الرب . فتزل هؤلاء تجاه هؤلاء سبعة ايام . ولما كان اليوم السابع ، التحمت الحرب فقتل بنو إسرائيل من الآراميين مائة الف راجل في يوم واحد . وهرب الباقون إلى افيق إلى المدينة ، فسقط السور على

السبعة والعشرين الف رجل الذين بقوا ، وهرب بنهدد ، ودخل المدينة إلى مخدع ضمن مخدع . فقال له عبيده : انا سمعنا ان ملوك آل اسرائيل هم ملوك رحمة . فلنشدد الآن مسوحا على متوننا ونجعل « حبالا » على رؤوسنا ونخرج إلى ملك اسرائيل لعله يستبقي نفسك . فشدوا مسوحا على متونهم ، « وحبالا » على رؤوسهم . وجاؤوا ملك اسرائيل وقالوا : ان عبدك بنهدد يقول : اتوسل ان تستبقي نفسي . فقال أو حي هو بعد ، انما هو اخي ، فاستبشر القوم وبأدروا ، فتلقوا الكلمة من فيه ، وقالوا : اخوك بنهدد . فقال : هلم فخذوه . فخرج إليه بنهدد ، فاصعده على المركبة . فقال له : المدن التي اخذها ابي من ابيك اردها عليك ، وتجعل لك اسواقا في دمشق ، كما فعل ابي في السامرة . فقال : وانا اطلقك بهذا العهد ، وقطع له عهدا واطلقه « آه المطلوب من ايراده .

فهذا نص صريح ، ذكر فيه لأول مرة في التاريخ استعمال ( الجبال ) أو العقل مشدودة على الرؤوس . وكان ذلك في عهد بنهدد ، الذي ملك على الآراميين من سنة 917 إلى 885 قبل المسيح .

ولا جرم ان المراد ( بالجبال ) هنا ، ما سماها العرب بعد ذلك ( بالعقل ) ( جمع عقل ) أو باسماء أخرى ، كما ستقف عليها .

زد على ذلك ان الفرنسيين اذا ارادوا اليوم الدلالة على ( المقال ) بلسانهم قالوا Tresse أي بريم أو جديل أو ضفر أو ضفيرة أو Corde أي حبل ، أو مرير أو فتيل .

ومعلوم ايضا ، ان الآراميين أو الآراميين كانوا في ايام بنهدد ، قوما رحلا كاهل بادية العرب ، فكانت عاداتهم ، واخلاقهم ، وآدابهم ، كمادات الاعراب ، واخلاقهم ، وآدابهم وكذا قل على اكلهم ، وشربهم ، ولبسهم ، وحلهم ، وترحالهم ، واقامتهم ، فهذا كله كان متشابها بين القومين ، لان الطبيعة كانت تدفعهم إلى اتخاذ تلك الامور جميعها ، بصورة واحدة .

### شهادة التصاوير القديمة

وقد ظهر في الآثار التي وجدت في ديارنا العراقية تصاوير وتمائيل منها بالمقال وحده ومنها بالصماد أو الكوفية وحدها ، ومنها بالكوفية المثبتة على الراس بالمقال . وعلى من يشك في صحة كلامنا ، ان يزور

دار هذه التحف او ما يشابهها في دور التحف الغربية كباريس ، ولندن وبرلين وغيرها ، او أن يراجع بعض الكتب المصورة التاريخية الجامعة لمثال هذه النقائس الأثرية التي تبحث عن العراق ، او الشام ، او فلسطين ، ففيها الفنية عما يود أن يشاهده في البلاد نفسها ، اذ يرى بعيني رأسه تماثيل من عهد حمرب ، أي منذ زهاء خمسة آلاف سنة وعلى رؤوسها العقول والكوفيات او المصائب والصدمة ، او احد الاثنتين دون الآخر .

وكنت كتبت الى حضرة الاستاذ الجليل والامير العلامة الخطير والبحاثة الشهير شكيب ارسلان ، أسأله عما يعرف من امر الكوفية والعقال وعن وقوفه في تصانيف المؤرخين والادباء عليهما فكتب الي من صوفر (لبنان) في 29 تشرين الاول (اكتوبر) من سنة 1937 ما هذا نصه :

(( ... ولقد كنت كتبت الي سائلا عما اذا كان عندي من معلومات عن لبس العقال ، ومتى بدأ ، وابن بنا . وكنت انقب عن هذه المسألة الجلية ، واسأل أهل الذكر ، وما حظيت عنها بطائل . غير انه اخبرني اناس زاروا ( تدمر ) ، فوجدوا فيها نقوشا وتماثيل من جعلتها رجال على رؤوسهم الكوفيات والعقل ، فهذه التماثيل هي من قبل الاسلام بدون شك ، ومنها نعلم ان العقال في جزيرة العرب وما جاورها ذي قديم ربما يرجع الى آلاف من السنين ... )) انتهى .

ونحن نؤيد هذه الاقوال بما يرى من الصور في التاريخ القديم للشرق الى الحروب المازية للعلامة فرنسوى لنورمان . ففي المجلد 1 : 307 صورة رجلين توراتيين من أهل ماذية وقد لف الواحد رأسه بعمامة ، واثبتها عليه بمصاصة عريضة . اما الثاني فقد لبس كوفية ، واثبتها بمصاصة ايضا لا بعقال (1) وقال المؤلف عليهما ، انهما رأسا أسيرين من حروب ماذية وهما مصوران محفورين على قصر سنحاريب في قوينجوق ، وكان من الاسرى الذين يشتغلون أشغالا شاقة في بنايات الملك . ومن المعلوم ان الحروب الماذية وقعت في المائة الخامسة قبل الميلاد .

وفي ص 153 من المجلد الرابع ، صورة رجال من الاشوريين يقدمون الى ملك اشور جزية خيلا ،

ورؤوس اولئك الرجال مشدودة بمصاصة وهي من النقوش المحفورة التي كانت في بلاط الملك سرجون .

وفي ص 305 من ذلك المجلد عينه صورة مقسومة قسمين : في القسم الاعلى منها رؤوس رجال مغطاة بقلانس مستطيلة او بخوذ مرتفعة لانهم من الجند . ورؤوس رجال القسم الاسفل منها مغطاة بكوفيات وقد اثبتت بمصائب لانهم من الرعية او من السوق وقد كتبت تحتها : « اشوريون يحملون الاسلاب وهم يسوقون امامهم الاسرى والصورة من كوينجوق (باطراف الموصل) وهي اليوم في دار التحف في لندن .

وفي ص 323 من التاريخ المذكور صورة تمثل حربا في بلاد جيلية كثيرة الغابات وهي من بلدة نمرود ( في انحاء الموصل ) والمصورون فيها طائفتان : طائفة الجند السوقة فلبسوا رأس الجندي الخوذة وملبوس رأس السوق المصاصة وحدها .

وفي ص 423 منه صورة مغنين ومن الضاربين على آلات اللبو وهم من العبيد الاسرى . ورؤوس جميعهم مصصوبة عسبا .

وفي ص 78 من المجلد 6 صورتان تمثل احدهما صورة جندي بيده حمل وعلى جنبه الايمن سكين كبير . وتقابله صورة امرأة معممة بالكوفية . وقد وجدت هاتان الصورتان في اصطخر من بلاد فارس . منهما صورتا ماذيين من أهل فارس .

وفي ص 150 من المجلد المذكور ترى صورة رجلين يضعان احتمالا على بعير وعلى رأس احدهما كوفية مربوطة بمصاصة ، وعلى رأس الثاني قلنسوة بطرفين ينحدران على الاذنين .

وفي ص 155 منه صورة تمثل مهاجرين من أهل آسيا ، يهبطون وادي النيل وقد اصيبت هذه الصورة منقوشة على قبر مصري في بني حسن .

وفي ص 432 منه صورة نصب حميري يمثل عربا وقد لفوا رؤوسهم بالكوفيات ، وأمروها تحت احناكهم وهذا ما يسمى عند السلف بالتحنك .

وان كان بين يديك ( التاريخ القديم لشعوب الشرق المؤتم تأليف ج. ماسبرو (2) فافتح مجلد

(1) François Lenormant : Hist. Anc. de l'Orient - 9<sup>e</sup> Edition - Paris - A. Lévy, 1881

(2) G. Maspero : Hist. Anc. des Peuples de l'Orient Classique - Les Empires - Paris - Librairie Hachette et Cie, 1899

السلطنات 3 : 87 تجد صورة قسم من جزية اسرائيل للملك سلمان أسر ( أو كما يسميه العرب سلمان الأسير ) يحملها رجال قد لفوا رؤوسهم بالكوفيات وقد عقدوا أطرافها وراء رؤوسهم تلك ، ولم يشدوا عليها عقلا . وفي المجلد 2 : 151 تجد صورة رجال سوريين وقد لفوا على رؤوسهم عقلا عن صورة نقلت عن قبر كان صاحبه يطوي بساط أيامه في نحو أواخر الدولة الثامنة عشر من دول مصر المنقرضة (أي في نحو ألفي سنة قبل الميلاد) .

فهذه بعض الصور التي ظفرنا بها في بعض الكتب التي ترى في خزانتنا ، وهناك مصنغات لا تحصى مزينة بأحسن الصور وفيها ما يثبت كل ما نقلناه أو اثبتناه وكله سابق للإسلام .

### 3 - الكوفية بعد الإسلام

أما بعد الإسلام فلا جرم أن ( الكوفية ) كانت موجودة بغير هذا الاسم ، وكذلك ( العقال ) فان هذا الاسم محدث وقد أخذ من المشابهة التي ترى بينه وبين عقال البعير .

### (1) الكوفية في عهد العباسيين

واقدم نص عثرنا عليه يذكر ( الكوفية ) هو ما جاء في كتاب « رسوم دار الخلافة (3) » لأبي الحسين هلال بن المحسن بن ابراهيم الصابي ( المتوفى سنة 448 للهجرة في ص 131 من النسخة الخطية الاصلية ) وهذا هو نصها :

« لما خلع الطائع ، رحمة الله عليه ، على عقد الدولة ولقبه تاج العلة ، حل اليه في اليوم الثالث فلبسوه وشي منهج ، مجالسية ، وفرجية وشي ، وكوفية مثقلة ... » وذلك في نحو سنة 355 هـ ( 965 م ) .

اذن قد مضى على هذه التسمية نحو من ألف سنة ومن البديهي ان الكلمة لم توضع في تلك السنة ، بل لا بد من أنه مضى عليها ما يقارب خمسين سنة حتى تشيع بين الناس وربما أكثر من ذلك . وجاء ذكر

الكوفية أيضا في عيون الانباء ( 2 : 177 ) قال : « وهو شاب ( والكلام على الحكيم موفق الدين يعقوب بن سقلاب النصراني وكان عائشا في سنة 585 للهجرة = 1189 م ) على رأسه كوفية وتخفيفة صغيرة » اهـ

فهذان نصان اسلاميان قديمان يذكران الكوفية ذكرا واضحا لا شبهة فيه . ومعلوم ان الكوفية تحتاج الى عقال أو نحوه لتثبيت على الرأس ولذلك كان لا بد من العقال كلما ذكرت الكوفية وان لم يذكر بوضوح العبارة .

( اسم الكوفية قبل الإسلام : الصماد ، واسم العقال : العصابة ) - ولهما مرادفات -

قال في العين : - « صمد رأسه تصميذا : اذا لف رأسه بخرقه ، أو توب ، أو مندبل ، ما خلا العمامة وهي الصماد » ، ويقال في كل من الفعل والاسم بالضاد أيضا أي ضمذ تصميذا والضمد والصماد في اللفظة الآرامية ( صمادا ) والمعنى واحد . وتلفظ باسكان الصاد ، وبألف في الآخر على ما هو شائع في اللفظة المذكورة . وأما ان العقال كان معروفا عند قدماء العرب بالعصابة فما لا شك فيه ، لاسباب منها : ان صاحب التاج يقول في مادة ( ع ص ب ) :

« والعصابة ، بالكسر أيضا : ما عصب به كالعصاب ، بالكسر أيضا ، قال ابن منظور وعصبه تعصيبا : شده . واسم ما شد به العصابة ، وفي الأساس : ويقال شد رأسه بعصابة ، وغيره : بعصاب . » انتهى .

ولما كان بعضهم يشد رأسه ، أو يغطيه بالتاج أو العمامة ، توسعوا في معناه الاول الموضوع له ، وانتقلوا به الى معنى التاج والعمامة . ومثل هذا التوسع يضر بمعرفة المعنى الاول ويجعل الكلم تقع على طائفة من المعاني ، فيحار القارئ في معرفة المعنى الحقيقي في العبارة الوارد فيها ، حتى انه ليعتذر على السامع معرفة الشيء المدلول عليه بذلك الحرف ، أهو المدلول ، أو المتوسع فيه ، أو المدلول الثالث أو الرابع اذ المعاني قد تتفرع فروعاً جمّة ، فالفريسيون مثلا يميزون بين العصابة وبين التاج وبين العمامة ، فكل من هذه الالفاظ معنى غير معنى أخيه . لكن هكذا جرى الناطقون بالضاد انهم يتوسعون في معاني جميع

(3) وهذا الكتاب يعده للطبع ولدي العزيز بالروح والاستاذ النابه السيد ميخائيل عواد ، وقد اغناه بتعليقات من انفس ما جاء مثلها في هذا الموضوع وزينه بفهارس واثبات تجاوز العشرة . وسيكون بين أيدي القراء عن قريب .

حروفهم ، أو يكاد . فقد قال الشارح : « والعصابة  
ايضا : التاج والعمامة . والعمائم يقال لها العصائب .  
قال الفرزدق :

وركب كان الريح تطلب منهم  
لها سلبا من جذبا بالعصائب

اي تنقض على عمانهم من شدتها ، فكأنها تسلبهم  
اياها . ونقل شيخنا عن عناية الشهاب في البقرة : ان  
العصابة ما يستر به الرأس ، ويدار عليه قليلا ، فان  
زاد نعمامة . ففرق بين العصابة والعمامة . وظاهر  
( كلام ) المصنف : انها تطلق على ما ذكره وعلى العمامة  
ايضا ، كانه مشترك وهو الذي صرح به في النهاية .  
انتهى كلام صاحب التاج .

قلنا : والاحسن الرجوع الى المعنى الاول ، وهو  
ايضا معنى اللفظة الواردة في بيت الفرزدق .

ومن اسماء الكوفية ايضا ( العمامة ) فقد جاء في  
تاج العروس في مادة ( ل ث م ) : « قال ابو زيد :  
تميم تقول : تلثمت ، وغيرهم : تلفمت . وقيل : اللثام :  
رد المرأة قناعها على انفها ، ورد الرجل عمامته على  
انفه ، فلو لم ترد العمامة بمعنى الكوفية لما ساء له  
هذا الكلام .

ومن الادلة البرهنة على ان العصابة هي العقال  
اشتقاق الكلمة نفسها فانها تدل دلالة الكلمة الاربعية  
نفسها وتلفظ عصوتا وبعضهم عصبنا بمعنى العصابة  
او العقال . والمادة اللغوية واحدة والاشتقاق واحد .

وزد على هذين الدليلين قدم صورة العقال على  
التماثيل التي ذكرناها ، فان العقال مصور فيها تصويرا  
جليا لا شبهة فيه ولا شك ملفوفا لفا محكما بعقد ان  
اتقن برمه .

وهناك دليل رابع وهو ان عرب شرقي الاردن  
يسمون العقال الى يومنا هذا ( العصابة ) وهو ايمن  
دليل على اثبات ما نحن في صدهه فقد كتب الي الاستاذ  
روكس العزيزي في اول كانون الاول ( ديسمبر ) من  
سنة 1940 ما هذا نصه بحروفه : « ويليسون ( اي  
العرب ) على رؤوسهم المرير ( وزان كبير ) وهو لباس  
قديم عرفه سكان البادية ، ويسميه اهل السلط  
وعجلون وفلسطين ( العقال ) . ويسمى البدو العقال  
( عصابة ) ايضا » انتهى .

ودليلنا الخامس : ان وجود العصابة ( مع اختلاف  
اسمائها ) في جميع البلاد التي فيها بادية على رؤوس

من يشدها عليها دليل بين على ان هذا الامر لم يحدث  
في هذه الايام الاخيرة ، بل هو قديم احدهه هواء البلاد  
وتقلبه تقلبات اجبرتهم على ان تكون تلك العمرة مما  
يدفع عن اصحابها شدة الحر في الصيف ، وضرر  
البرد في الشتاء ويمنع الغبار من التسلسل في منافذ  
الراس كالعين والاذن والانف والفم ويدفع المطر عن  
الوجه .

فاذا اجتمعت ادلة اللغة ، والتاريخ والنقل عن  
السلف ، والمادة الجارية في جميع الديار التي فيها  
بدو ، فكيف لا تكون الحقيقة على ما سير في وجهها  
في هذا العصر ؟

ويزداد على كل ما تقدم ان من اسماء العقال او  
العصابة مرادفاته في بعض الربوع الناطقة بالضاد . من  
ذلك ( المرير ) في لسان اهل شرقي الاردن والمرير  
في اللغة الفصحى ما لطف من الحبال وطال واشتد  
فتله وهي المرائر . قاله ابن السكيت . ومثله المريرة  
بهاء في الآخر . ويسمى العمانيون - وديارهم على  
خليج فارس - الكوفية : ( العصر ) والعقال :  
( الخزام ) ويتخذونه دقيقا كالمرير . وذكر لنا احد  
الحضارمة في سنة 1897 واسمه محمد بن الرفاع  
الجندي ان اهل الربع الخالي - وهم بادية لم يختلطوا  
بالاجانب - يسمون العقال سبا ، بكسر السين وتشديد  
الباء ، وربما سموا به الكوفية ايضا . وفي تاج العروس :  
« السب بالكسر الحبل ... والخمار العمامة ... »  
انتهى . فلقد رأينا من اسمائه في التوراة ( الحبل ) ،  
وعند اهل الحجاز والعراق وكثير من بلاد العرب  
( العقال ) وعند ابناء شرقي الاردن ( المرير ) ، وعند  
بدو شرقي الاردن والسلط وعجلون وفلسطين  
( العصابة ) ، و ( السب ) عند اهل الربع الخالي ، فلم  
تبق شبهة في ان هذه العصابة وجدت منذ اقدم الازمنة  
في ديار الشرق الادنى عند العرب الحقيقيين .

### (ب) الكوفية في صدر الاسلام

جاء في اللسان في مادة ( ب ح ر ) : « واما  
حديث عبد الله بن ابي ، فرواه الأزهري بسنده عن  
عروة : ان اسامة بن زيد اخبره : ان النبي ، صلى الله  
عليه وسلم ، ركب حمارا على اكاف ، وتحتة قطيفة ،  
فركبه واردف اسامة ، وهو يعود سعد بن عبيدة .  
وذلك قبل وقعة بدر .

فلما غشيت المجلس عجاجة الدابة ، خمر عبد  
الله بن ابي انفه ، ثم قال : لا تغيروا . ثم نزل النبي

صلى الله عليه وسلم ، فوقف ودعاهم الى الله وقرا القرآن ، فقال له عبد الله : ايها المرء ان كان ما تقول حقا ، فلا تؤذنا في مجلسنا ، وارجع الى رحلك ، فمن جاءك منا فقص عليه ثم ركب دابته حتى دخل على سعد ابن عبادة ، فقال له : اي سعد ، ألم تسمع ما قال ابو حباب ؟ قال : كذا - فقال سعد : اعف واصفح ، فوالله ، لقد اعطاك الله الذي اعطاك ، ولقد اصلح اهل هذه البحيرة ( اي يثرب ) على ان يتوجه ، يعني يملكوه فيعصبوه بعصاة . فلما رد الله ذلك بالحق الذي اعطاك ، شرق لذلك فذلك فعل به ما رايت فعفا عنه النبي صلى الله عليه وسلم « انتهى » .

فقول الراوي « خمر عبد الله بن ابي انفه » دليل على انه كان على راسه الصماد ، حتى استطاع ان يخمر انفه بطرفه ، على مالوف ما يفعل كل من يلبس الكوفية فانه يخمر انفه اذا قابله غبار او عجاج . وفي قوله : « يملكوه فيعصبوه بالعصاة » دليل على ان العصاة او العقال كان من ملابس كبار العرب ، ثم امتد استعماله الى جميع اهل البادية لحاجتهم اليه .

ويزاد على ذلك : ان الرومان اتصلوا بالعرب من جهتين : من جهة الحجاز ، فكان لهم هناك كورة عرفت بعربة الحجر Arabia Petraea ومن جهة العراق في ايام لوقس وبنيايوس اي قبل الميلاد بنحو سبعمائة سنة . فكان اتصالهم هذا بابناء اسماعيل دافعا الى ان يأخذوا منهم بعض امور خاصة بهم فكان من جملتها الكوفية وسموها في لغتهم Cofea او Cuphia وسماها الايطاليون Cuffia او Scuffia وقد وردت اللفظة اللاتينية في كلام الاسقف فرتناس Fortunatus المتوفى سنة 600 للمسيح اي قبيل الهجرة باثنتين وعشرين سنة . ووردت بعد ذلك مبنى ومعنى في كلام الكويين Alcuin الانكليزي ، اللاهوتي الشهير ، والشاعر الكبير العلامة المنقطع النظير ، المتوفى سنة 804 للميلاد . وكان احسن من يتقن صفها في عهد العباسيين اهل الكوفة ، فاجتمع في اللفظة امران : معنى التكوف وهو استدارتها على الراس . وصنعها في الكوفة ، فشاعت حينئذ هذه الكلمة ومثلت كل لفظة سواها . ومن الغريب اننا قرانا في كتاب الملابس لدوزي هذه العبارة التي نقلها الى لغتنا « ولا اظن ان احدا يذهب الى ان للكوفية اصلا عربيا . اما انا فاذهب الى ان الكوفية ليست الا Cuffia ( كفية ) الايطالية و Cofia ( كوفية ) الاسبانية ، و Coiffe ( كواف ) الفرنسية ، و Coifa ( كواف ) البرتغالية . واذهب

ايضا الى ان الشرقيين استماروا هذه الكلمة من الايطالية وكانوا في العصور الوسطى يتاجرون في مواني مصر وسورية وينقلون الصليبيين « انتهى » .

قلنا : ويرد هذا الرأي اولا : تصاوير الاقدمين على الحجارة المشوثة في ديار الشرق الى يومنا هذا وذلك قبل وجود لغة الايطاليين على الارض . وثانيا ان الكلمة الايطالية مأخوذة من اللاتينية المولدة Cofea او Cuphia وهذه لا تتصل بمادة اصيلة فيها ، انما هي لقيطة فيها ، فهي من اللغة العربية ، وقد اقتبسها الرومان منها حين كانوا متطلين بالعرب من جهة الحجاز ومن انحاء الفرات ، وكانت هذه العمرة شائعة يومئذ في جميع الديار العربية . ولهذه المادة في لغتنا معنى يؤيد اشتقاقها ، وهو معنى التكوف اي الاستدارة لاشتمالها على الراس والراس مستدير ولاحظتها به كل الاحاطة ومن كل جانب . قال السيد مرتضى « والكوفية : ما يلبس في الراس ، سميت لاستدارتها » .

### عقال العرييات يسمى النوفلية

جاء في تاج العروس « النوفلية : شي من صوف يكون في غلظ اقل من الساعد ، ثم يحشى ويعطف ثم تختمر عليه نساء العرب . نقله الازهري » .

فيؤخذ من هذا الشرح ان النوفلية شيء يشبه عقال الرجال الا انه متين ومحشو صوفا لكي لا يتقل الراس . وقد كنت كتبت في سنة 1938 رسالة من القاهرة الى الاستاذ الجليل عبد الله مخلص في القدس ليسانال الشيخ كاظم الدجيلي فنصل المراق هناك وهو من الواقفين اتم الوقوف على آداب واخلاق الاعراب واصل البادية عما يعرف عن العقال الذي تتخذه بدويات العراق ، فاجابني الاستاذ المخلص بما يأتي :

« ... وقد زرتة وحدثته بما اردت وسألته عن العقال الذي تلبسه نساء البدو في العراق ، فذكر لي ما ادونه لكم باختصار :

« نساء شمر ، وعنزة ، والضعير ، وربما بعض نساء زوبع يشددن على رؤوسهن العقال وطوله نحو ثلاثة امتار ، بحيث يلف على الراس ثلاث او اربع لفات ، وفي طرفيه عثكولان يتدليان من الخلف ، وفي وسط الراس عقدة ، او ما يسونه ضبة :

« وهو كما ترى من نوع العقال الذي يستعمله الرجال ، الا ان لفات او طيات العقال الذي تستعمله

نساء العراق اكبر. وعلى ذكر العقال، أقول لكم ان العرب في فلسطين مسلميهم ونصرانيهم قد لبسوا العقال ، ولبدوا الطربوش ، وتراني الآن أضع على رأسي كوفية بيضاء ، وعقلا أسود من المرعزي كأعراسي في البادية » انتهى .

وحضر الشيخ كاظم الدجيلي في بغداد وكنست أيضا انا فيها في نحو اواخر ايلول ( سبتمبر ) من سنة 1938 فقال لي بحضور جميع الادباء الذين كانوا مجتمعين في مجلسنا يومئذ ما هذا روايته :

« العربيات اللواتي يتخذن ضربا من العقال ، اي النوفلية ، هن عربيات الصائح ، وعنزه ، وشمر والصفيرة ، وقد قل الآن استعمالهن له ، وبقي محصورا في نساء الشيوخ ، والوجهات من سائر الاعريبات » اه وكنت سألت مثل هذا السؤال الاستاذ الدكتور مصطفى جواد وهو في باريس ، فكان جوابه ما اروي به بحروفه :

« ان الذي رأيتموه على رؤوس البدويات نوعان : نوع من جنس العقال الذي يتخذه الرجال ، ونوع يسمى جمجة اي كمكة ، يتخذه النساء الربيعيات ، اي العميديات ، تهوينا لنقل ما يحملن على رؤوسهن من قصاع اللين والرائب . وكلاهما مألوف معروف .

« فاما العقال ، فعند اكثر البدويات الرواحل . واما الكمكة في شيء اضطرت الحاجة اليه ، فلا يدخل في ابواب العقال ، فالعقال هو الرفيع والجمجة ثخينة » انتهى .

وسألت الاستاذ عبد الله مخلص أن يبدي لي رايه بخصوص عقال النساء فكتب الي من القدس بتاريخ 21 / 8 / 1938 ما هذا نصه :

( اما لباس الرأس الذي يشبه العقال ، وهو كما وصفتم من جهة شكله ، وحشوه بمادة من المواد ، فيسمى هنا ( في فلسطين ) صمادة . وهو خاص بالنساء . الا ان هذا اللباس لا يدار على الرأس كالعقال بل يوضع فوقه ، فيتدلى من الجانبين ، حتى يصل الى الاذنين . وله خيط يربط به من تحت الخنك يسمى (مخلة) أو (زناق) ويخاط على دائرة الصمادة منلوكات فضية ، قديمة ، مجوفة ، يركب بعضها بعضا ، فتراص وتنسجم . ( والصمادة ) هنا غير ( الصماد ) الوارد في كتب اللغة . وكذلك القول على ( المحنكة ) و ( الزناق ) انتهى كلامه .

فيؤخذ من هذا كله أن العقال ، أو ضربا منه ، معروف الى اليوم عند البدويات ، على حد ما كان معروفا في سابق العهد ، الا انه اخذ بالزوال شيئا بعد شيء وفي جميع بلاد الشرق الادنى التي فيها بادية . وقد ذكر بركاردت أن نساء اعراب الدولة يعتمن بمعائم من حرير أسود ، طول الواحدة ذراعان مربعان ويسمونها ( شال خاص ) وتعمل في دمشق ، وكثيرا ما تزينه بخيوط من ذهب أو فضة » انتهى .

### اختلاف أسماء الكوفية باختلاف البلاد والازمان

مر بنا ان الكوفية لم تكن دائما مدونة بهذا الاسم فقد رأينا انها سميت في سابق العهد بالصماد والضماد، ثم انتقل الى لفظ الكوفية في عهد العباسيين ، ثم اختلفت اسمائها باختلاف المادة المتخذة منها ، او باختلاف الوانها ، وقد يختلف أصل البلد الواحد في التلفظ بالكلمة الواحدة لان الجميع لا يتفقون على النطق بالحروف على وجه واحد . وجمع الكوفية الكوانسي والكوفية بلفظها المراقبون الكفية أو الجفية ، لانهم يلفظون الكاف جانا معقودة مثل GH في الانكليزية Change ويكسرونها ، ويلها فاء مشدودة مكسورة ، ويعقبها ياء مشدودة مفتوحة ، وفي الآخر هاء . ويجمعونها على جفاني وزن كراسي ، وهم يريدون أيضا معنى آخر ، ولا سيما أهل المدن منهم ، فانهم يطلقونها على المنديل الذي يمشطون فيه ، اي الشستقة ، وعلى المشوش وهو ما يتمسح به في المناديل . وأهل نجد يسمون اليوم الكوفية الحمراء ( محرمة ) وحركة الميم والراء بين الفتح والكسر ، واذا كانت بيضاء فيسمونها ( غرة ) بضم الغين ، او بحركة بين الكسر والفتح ، وتكون من القطن . والمراقبون من أهل البادية يسمون الكوفية ( الحلالية ) بتحريك الحاء واللام وكسر اللام الثانية وتشديد الياء . وهذا اذا كانت من قطن . اما اذا كانت من قز فيسمونها ( قزية ) ويلفظونها ( جزية ) بفتح الاول وتشديد الثاني المكسور يليها ياء مشددة مفتوحة . والقز ضرب من الابرسم أو الحرير الا انه دون الحرير حسنا . ومن أسماء الكوفية عند أهل نجد ( الدسمال ) او ( الدشمالة ) بدال مفتوحة وبعضهم يكسرها ، وهم يخصون بذلك الكوفية الحمراء الخالية من كل نقش بارز وهي غير الشماع أو اليسماع وغير الشال وغير الفترة وربما كان الدسمال مخططا احمر واصفر ، ويجمعونها على دساميل .

والكلمة فارسية الاصل منحوتة من ( دست ) اي يد . و ( مال ) اي يمسح أو يمش والمعنى ما يمسح به

اليد ، لان العرب لا يتخذون شستقة يخطون بها ، بل يمشون ايديهم ويمسحون وجوههم بطرف الكوفية ايا كانت .

( والشماغ ) ككتاب او ( البشماغ ) بعضهم يجعل القاف في مكان العين في اللفظين المذكورين ويجمعونها على يشاميع كلمة تركية هي في هذه اللغة ياشمق او ياشماق . برقع خفيف تتبرقع به التركيات ، ثم اطلق على كل ستر او ثام او نقاب ايا كان ، لكن اهل نجد وبعض العراقيين يسمون به كوفية تتخذ من القطن وفيها نتوءات بخيوط حمر او زرق ، ويكون البشماغ مربعا ، فيطوى طيا مخالفا بين اطرافه ، فيصبح كالزاوية الكبيرة المستقيمة الزوايا او الكوس فتوضع على الراس بتحكيم وسطها عليها ثم يربط عليها العقال .

اما اذا كانت الكوفية حمراء اللون متخذة من الصوف لا من القطن فيسمونها ( الشال ) من باب التوسع في مكاني الالفاظ . ومعلوم ان الشال في الاصل : « هذا الرواء الذي يعمل بكشمير ولاهور ويجلب به ( كذا ) الى البلاد يقال انه من دير الجبل ، سمي به لانه يرفع على الاكتاف . ان كانت عربية والجمع شيلان وشالات » . انتهى من التاج .

قلنا : ليس الشال من كلام العرب ، بل من لسان الفرس وهو عندهم من الثياب يتخذ من الصوف ، خشن الصنع . يليسه فقراؤه وبه سمي الثوب الذي يصنع في كشمير ، ولاهور ، وفي تلك الارحاء ويكون من شعر المعزى او من وبر الجمال ، او صوف القنم .

### الكوفية والعقال

اما اذا كانت الكوفية من القطن الابيض فيسميها اهل نجد (غتره) وزان غرفة ، وكان يسميها اهل العراق قبل نحو مائة سنة ( الضريبة ) والاسم مأخوذ من ( الضريب ) وهو الثلج لبياضها الخالص ، وتتكون من حرير ابيض وربما سموها ( ضربيا ) بلا هاء . واذا

كانت تلك الكوفية من الحرير المشطب او المسيج او المقلم فكانوا يسمونها ( الساعورية ) ، ولعل سبب هذه التسمية ان اغلب هذه الشطب او الخطوط الممتدة فيها ، صفر بلون النار وهي الساعور .

هذا بعض ما وجدناه من اسماء الكوفية بحسب بعض البلدان ، ولا جرم ان هناك غير هذه الالفاظ .

### اختلاف اسماء العقال باختلاف البلدان العربية

قد بينا في ما تقدم من كلامنا ان اول اسماء العقال : ( الحبل ) على ما ورد في سفر الملوك من اسفار التوراة لانه هو حقيقة حبل لا غير والذي نقلوا التوراة الى لغات مختلفة لم يسموه الا باسم يدل على الحبل ، فهو باليونانية Kamilos وفي اللاتينية Funiculus وفي الارمية ( حبالا ) وفي الحبشية ( حبل ) الى غيرهما من اللغات .

ولهذا كان من اسمائه العربية في البلاد الضادية اللسان تدل كلها على مثل هذا المعنى . فمن اسمائه الاولى عند العرب ( العصابة ) ، قال في التاج ( العصابة بالكسر ) : ما عصب به (كالعصاب) بالكسر ايضا والعصب . قاله ابن منظور . وعصبه تعصبا : شده واسم ما شد به العصابة . انتهى . وهو الاسم الشائع اليوم في شرق الاردن وانحاء فلسطين .

ومن اسمائه في تلك الربوع ( المرير ) . فراجعها في ما تقدم من كلامنا .

والمرير هذا يسمي في عمان ( من ديار خليج فارس ) خزاما . وقد تقدم الكلام عليه ايضا . هذا ما استطعنا ان نجعله من الافادات لاثبات ان الكوفية والعقال من اقدم ملابس الراس عند العرب ، ويصعب على منكرهما ان يهدم هذه الادلة ، اللهم الا اذا كان سنيء النية . لا يقنعه وجود الشمس في رابعة النهار .